

الفداء

أصبحت سمراء محزونة كاسفة البال، تبدو على وجهها المتجدد وجبينها المقطب كآبة مظلمة، لم تحاول في هذا اليوم أن تخفيها أو تخفف من حدتها كما تعودت أن تفعل منذ أعوام وأعوام. فقد عرفت سمراء ألم الحزن منذ احتُفرت زمزم، ومنذ ظهر حرص زوجها على الولد، ورغبته في كثرة العدد، ومنذ خطب فاطمة المخزومية فأحبها وكلف بها. وانصرف إليها عن كل شيء وعن كل إنسان، ومنذ كثر ولد فاطمة من البنين والبنات، واشتد ذلك حب عبد المطلب وكلفه بها وانصرافه إليها، وتجافيه عن زوجه الأولى، تلك التي أضاعت له سبيل الشباب، وأعانتة على احتمال أثقال الحياة الأولى.

نعم! عرفت سمراء ألم الحزن في هذه الأعوام الطوال من حياتها، ولكنها كانت على بداوتها امرأة لبقة بارعة الجمال، ذكية القلب، تعرف كيف تخفى على زوجها ما يكره، وكيف تلقاه بما يحب.

وكانت توفق بفضل هذه اللباقة وهذا الذكاء لأن تستميل إليها زوجها وربما اضطرتة إلى أن ينقطع إليها وقتاً ما، وينسى زوجه الأخرى إلى حين.

ولكن يوماً أقبل يحمل إلى سمراء شراً ليس فوقه شر، وألماً ليس بعده ألم؛ أصبح هذا اليوم مظلماً، فما أمسى حتى أظلمت له حياة سمراء كلها. ذلك أنه مضى بموت ابنها الوحيد، فأذاقها مرارة الثكل واليتم والترمل جميعاً. فقد كان الحارث لها ابناً تجد عنده قرة العين، وأباً تحس منه العطف وحنو الآباء: وكان هو يحس ألمها ويعرف أسرارها، ويجد في الطب لهذا الألم؛ فكان يبالغ في رعاية أمه وحماتها. وكان شديد الحرص على أن يلقاها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعلى أن يطيل المكث معها والتحدث إليها، يُشركها في حد أمره ولعبه، يستشرها ويظهر قبول مشورتها والاستماع لنصحتها. فكان يقوم منها في أكثر الأحيان مقام أبيه؛ وكان يغريها بحبه وبره عما كانت تجد من الوحشة حين يصد عنها زوجها فيطيل الصدود. فلما مات الحارث مات معه أمل سمراء، ولم تلق الحياة إلا بوجه محزون كئيب يصور قلباً مكلوماً مظلماً. وقد جزعت سمراء لهذا الخطب واشتد جزعها وطال. ولكن أي شيء يبقى على الأيام! ولقد ذهبت الأيام الطوال بحدة هذا الجزع وشدته كما ذهبت بنصرة شباب سمراء، وكما ذهبت بحياة ابنها الحارث، وكما ذهبت بحب زوجها عبد المطلب وأصبحت وقد تقدمت بها السن وامتحنتها حوادث الدهر، امرأة مدعنة لحكم القضاء، لا تنكر شيئاً، ولا يسرها شيء، محزونة ولكن في دعة، ملتاعة ولكن في هدوء!.

وقد أحست إنكار الناس من حولها لما يرون من حزنها وكآبتها، وما يجدون من انقباضها عنهم، فجدت ما استطاعت فى إخفاء ما تجد وكتمان ما تحس؛ واحتفظت لنفسها بهذا الكنز الحزين، كنز الذكرى وما تثيره من العواطف، وما تهيجه من اليأس. وتركت للناس من نفسها شخصاً عادياً يبتسم حين يبتسمون، ويرضى حين يرضون، ويشاركهم فى أكثر ما يجدون من عاطفة أو شعور. على أنها كانت تجد شيئاً من الرضا وراحة النفس حتى تجد من زوجها عطفاً عليها وأنساً إليها.

وكان زوجها منذ أصابها هذا الخطب شديد الرفق بها، كثير الزيارة لها، يُصفيها مودة خالصة قوية، ولكنها خالية أو كالخالية من هذا الحب الذى يحيى قلوب النساء. أصبحت سمراء فى هذا اليوم مخزونة ظاهرة الحزن، كنيبة بادية الكآبة، أقبل عليها إمؤها الثالث يحينها تحية الصباح، فردت عليهن تحيتهن ردًا فاترًا؛ ثم جلست وجلسن، وأخذت مغزلها وأخذن مغازلهن، وعملت أيديهن فى الغزل، وسكنت ألسنتهن عن الكلام. وكانت سمراء تدع مغزلها من حين إلى حين وتظل ساكنة واجمة، وربما انحدرت من إحدى عينيها دمة حارة فأسرعت إليها تزيلها بيدها دون أن تقول شيئاً. والإماء صامتات ينظرن فى حزن عميق إلى مولاتهن الحزينة، ولا تستطيع واحدة منهن أن تبدأها بالكلام. فلما طال عليهن هذا الصمت وهذا الحزن، وثقل عليهن ما كن يجدن من ألم، وما كان يملأ قلوبهن من حب للاستطلاع، ورغبة فى الكلام، وميل إلى تعزية مولاتهن، اجتزأت "ناصعة" وكانت أشجعهن قلباً، وأطولهن لساناً، لأنها كانت تعرف مكانتها عند سمراء، فقالت: لقد أصبحت يا سيدتى على حال ما رأيناك عليها منذ زمن بعيد. فقد كنا نراك محزونة كنيبة، ولكنك كنت تجاهدين الحزن وتدافعين الكآبة وتتكلفين الرضا، وكنا نجد من ذلك ما يشجعنا على تسليتك وتلهيتك بالحديث حيناً، وبالغناء حيناً آخر؛ نقص عليك كل واحدة منا ما حفظت من أخبار بلادها، وتغنيتك كل واحدة منا بما تعلمت من الغناء فى رطانتها الأعجمية؛ وكذلك كنت تسمعين أقاصيص سورية، وأخرى حبشية وأخرى يونانية، وكنت تسمعين أغانى فى لغات أجنبية قليلاً ما تعجبك، ولكنها كانت ترسم على ثغرك الابتسام فى أكثر الأحيان. أما اليوم فلم نر منك حزناً قائماً، ولم نسمع صوتك العذب، ولم يرعنا إلا هذه الدموع التى تسفحيتها فى صمت أليم! تكلمى يا مولاتى! أبينى! ماذا تجدين! ماذا أحزنك اليوم؟ تكلمى وأحسنى ظنك بنا؛ فقد نستطيع أن نعينك على الحزن كما كنا نستطيع أن نبعث فى قلبك السرور. نحن إماء، ولكننا نساء نجد الحزن كما تجدينه، ونحس اللوعة كما تحسيتها! ولعلَّ حبنا للبكاء أشد من حبنا للضحك! ولعلَّ حرصنا على الحزن أشد من رغبتنا فى السرور! ولعلنا إن شاركناك فى الحزن والألم جارينا طبائعنا، وأرسلنا نفوسنا على سجاياها. فليس فى حياتنا وإن كنت لنا مُكرمةً ما يسر أو يرضى. وأى شئ يسر أو يُرضى فى حياة الأمّة الغريبة التى لا تملك نفسها، ولا تحس إلا

ذل الرق، ولا تستطيع أن ترضى حقًا، أو أن تسخط حقًا، إلا إذا خلت إلى نفسها. وأنى لها أن تخلو إلى نفسها؛ تكلمى يا سيدتى! ماذا يسوءك؟ وماذا يغشى وجهك بهذا الغشاء الحزين؟

قالت "ناصعة" ذلك وانتظرت أن تجيبها سمراء، ولكنها لم تظفر بجواب، وإنما رأت دموعًا تتحدر ثم تنهمر، ثم تستحيل إلى زفرات حارة ونجيب غير منقطع.

وهنا ما الحزن ما بين السيدة وإمائها من فروق، فأسرعن إليها يُهدئنها ويُرفقن بها: هذه تقبلها، وهذه تمسح دمعها، وهذه تُمرُّ يدها على رأسها، وهنَّ جميعًا يبكين لها ويبكين لأنفسهن. وقد هدأت سمراء بعض الشيء، وسكنت نفسها الثائرة على هؤلاء الإماء الرقيقات، فابتسمت لهنَّ فى حزن، وشكرت لهن ما أظهرن لها من مودة وعطف، وطلبت إليهن العودة على ما كنَّ فيه من عمل، وأخذت هى مغزلها وجعلت تدبره فى يدها. ولكن "ناصعة" لم تلبث أن عادت على الكلام، فقالت وهى تتكلف الابتسام وتتصنع الضحك: ليس يُغنى عنك الصمت يا مولاتي؛ فإننا نعلم ما تُسرِّين كما نعلم ما تُعلنين. ولولا خوفنا منك وإكبارنا إياك لقصصنا عليك القصة التى تُحزنك وتُجرى دموعك الحارة على خدك النقي؛ ولكن أنى لنا أن نبلغ منك هذه المكانة، وإنما أنت سيدة ونحن إماء!

قالت سمراء: كفى عن هذا الحديث يا ناصعة! قد أنسييت اليوم أن بينى وبينكن فرق ما بين السيدة وإمائها، ولست أرى منكن الآن إلا نساء تعسات مثلى؛ إنما نحن أخوات فى الشقاء والبؤس؛ وما ينفعننى أننى حرّة وأنا مثلكن مقيمة على الضيم، محتمة للذل، مُدعنة لصروف القضاء، لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا، ولا أستطيع أن أبرح هذه الدار وإلى أين أبرحها! لقد ذهبت غارة بنى أسد بأبى وأخى، وأصبحت أُمى وأخواتى إماء مثلكن، لا أعرف من أمرهن شيئًا، ولم ينهض فتيان بنى عامر وكماتهم للثأر! ليت شعرى ماذا يصنع أبو براء بأسنته! ما له لا يُلاعبها! لقد ذهب الموت بابنى، وأصبحت أسيرة فى يد عبد المطلب، أسيرة لا كالأسرى، يجفونى ولا أستطيع له بغضًا ولا قلى كما يفعل الأسرى، وإنما أحبه ولا أجد عن داره منصرفًا. ها هو ذا قد عاد من رحلته إلى اليمن منذ ثلاث، فلما بلغ مكة أسرع إلى هالة بنت وهيب، فقضى عندها أولى ليلائه وأول أيامه؛ لأنها أحدث زوجاته به عهدًا. ثم أصبح فانتقل إلى نثيلة فأقام عندها يومًا وليلة. ثم أصبح فانتقل إلى فاطمة فأقام عندها يومًا وليلة. وما أرى إلا أنه سيقبل بعد حين قيلم بهذه الدار إلمامة قصيرة، ثم يسرع إلى هالة، فما أشد شوقه إليها! وقد حدثت أنه أقبل من اليمن كأحسن ما يكون الرجال سمةً، وأبرع ما يكون جمالاً. وحدثت أن هالة أنكرته حين رآته؛ فقد ودعنا أبيض الرأس وعاد فاحم الشعر كأنه لم يتجاوز الثلاثين^(١). وقد أنكرته من الغد

(١) انظر طبقات ابن سعد: ص ٥٢ ج ١ ق ١.

قريش كلها لما رأَت من سواد لمتة. ولكنه أزال عجب قريش حين أظهر لها هذا الخضاب الذى حمله فى اليمن، والذى يرد الشيب شبابًا، والذى أسرع قريش إليه فاشتريت منه، واختضب به شبيبها فإذا أهل مكة كلهم شباب. كل ذلك ولم أرَ عبد المطلب، ولم أحس منه ذكرًا لى وحنينًا إليّ. وماذا يصنع بى؟ ليس له شباب هالة، ولا جمال نُتيلة، ولا ولد فاطمة! وإنما أنا عجوز فانية، يتيمة وحيدة، ليس لها أب ولا أم ولا ولد. أنا هذا الحمل الثقيل الذى يضيق به صاحبه، ولكنه يأبى أن يُلقيه ويتخفف منه مخافة أن يصفه الناس بالضعف أو القصور.

قالت ذلك وأغرقت فى بكاء طويل شاركها فيه إماؤها الثلاث. ولكن "ناصعة" لم تلبث أن قالت: أهذا كل ما تعلمين من أمر زوجك يا سيدتى! إنك إذا تجهلين كل شىء، ولا تعلمين إلا أقل أمره خطرًا. وإن عندى من أمر سيدنا ما لو قصصته عليك لأرضاك، ولخفف لوعة الحزن هذه التى تحرق فؤادك الكئيب. لن تَرى زوجك اليوم يا مولاتى فهو عنك فى شغل. لقد كان راضيًا مسرورًا حين كان يرى نساءه يُكرن سواد لِمَتِه ويُعجبن بشبابه الجديد، وحين كانت قريش تستبِق إليه تشرى منه هذا الخضاب بما أحب من مال. ولكن مخزون منذ أمس، مغرق فى حزن لا قرارة له، فهو خليق بالرثاء. إنك تحبينه يا سيدتى وستتسين إعراضه عنك وسترتين له، وإنى أخشى أن تخفى إليه حين تعريفين نبأه. قالت سمراء: شىء من الجزع بدأ هادئًا، ولكنه لم يلبث أن اشتد قليلًا قليلًا حتى بلغ أقصاه: ماذا تقولين؟ وبم تتحدثين؟ هو مخزون! هو خليق بالرثاء! لماذا؟ أبينى متى علمت بذلك؟ كيف أخفيتِه على؟ ما الذى يحزنه؟ ما الذى يسوءه؟ ما الذى يجعله أهلاً للرثاء؟ ما الذى يضطرنى إلى أن أخف إليه لأعزيه وأواسيه؟ قولى، أسرعى، لا تُخفى على شيئًا.

قالت ناصعة: مهلاً يا سيدتى! ارفقى بنفسك ولا تذهبي بها فى الخيال كلّ مذهب! لا بأس عليه فى نفسه ولا فى ماله، ولكنه يُمتحن منذ أمس فى بنيه. هونى عليك! إنّ فى هذه المحنة لعزاء لك عن فقد حارتك العزيز. أتذكرين يوم احتقر زمزم فنذر لئن أوتى من الولد عشرة ذكورًا.. قالت سمراء: يراهم ليضحين بواحد. يا بؤس هذا اليوم! فقد عرفت هذا النذر فكان مصدر شقائى كله، عرفت أنه سيتكثر من النساء، ورأيت مدية التضحية ممدودة إلى عنق قد يكون عنق ابنى العزيز. منذ ذلك اليوم رأيت شبح الموت مقيمًا لهذا البيت ما أقام فيه ابني، مُفارقًا لهذا البيت ما فارقه ابني. ومنذ ذلك اليوم لم أرَ ابني فى يقظة ولا فى نوم إلا رأيت الموت ظلاً. أتمنى حديثك يا ناصعة.

قالت الفتاة: لقد ذكر زوجك أمس وهو يتحدث إلى فاطمة نذره هذا، وذكر أنّ أبناءه الذكور قد بلغوا عشرة أحياء يراهم بمولد طفله حمزة، فأقسم ليوفينّ نذره، وليضحين بأحد أبنائه، وليجعلهن هم تسعة منذ اليوم، حتى تتمهم له هالة أو نتيلة أو غيرها عشرة أو تزيد بهم على

العشرة، ولم يكد يعقد هذه اليمين حتى جزعت فاطمة وشاركتها بناتها فى الجزع. أشفتت على الزبير وأبى طالب وعبد الله وغيرهم من بنىها. وبلغ الخبر نتيلة فخافت على العباس. وبلغ الخبر هالة فجزعت على حمزة. وثارت لكل امرأة قبيلتها، وألح الناس على الشيخ: تأبى كل قبيلة أن تكون التضحية منها. ومضى الشيخ فى يمينه، فجمع إليه بنيه وأنباهم بنذرهن. فكلهم أقره، وكلهم أطاعه، وكلهم ألح عليه ليؤفين بالنذر، وليقدّمَنَ التضحية. وليس لقريش منذ أمس حديث إلا هذا النبأ، هم يتناقلونه ويكبرونه وينكرونه، وقليل منهم من يُقر الشيخ على هذا العزم الفظيع.

ثم قالت الفتاة: ثم أقبل الشيخ ببنيه إلى الكعبة مع الصبح، فأجال فيهم قدامه، فخرج القدح على أحب بنيه إليه وآثرهم عنده. قالت سمراء وهى مضطربة، وقد سالت من عينها دمعتان محرقتان: خرج القدح على عبد الله؟ قالت الفتاة: نعمن! فأخذ الشيخ بيد ابنه يقوده إلى المذبح وفى يده المدينة. ولكن بناته جميعاً وأمهن قمن دون الفتى صائحات يستصرخن بنى مخزوم، ويستصرخن قريشاً كلها، ويمنعن الفتى بحياتهن. وأقبلت إحداهن إلى الشيخ ضارعة ثائرة معاً فقالت: إذا كان قلبك قد استحال إلى صخر، فلا ترق لابنك الشاب، ولا لأمه الشيخة، ولا أخوانه البائسات، وإذا كنت شريعة قريش قد قست وجفت وغلظت، حتى جعلت للآباء على أبنائهم حق الحياة والموت كأنهم الرقيق أو الحيوان، فدعنا نحتكم فى هذا الفتى إلى رب هذا البيت؛ فهو أوسع منك رحمةً وأجدر منك أن يضمن بهذا الشاب على الضياع، وأن يربأ بهذا الدم الزكى أن يُراق. لنحتكم إلى رب هذا البيت فى أمر هذا الفتى. نُقَرع بينه وبين هذه الإبل الكثيرة التى تُسميها فى الحرم، ولنبلغن من ذلك ما يُرضى رب هذا البيت.

وكانت قلوب قريش قد تفتطرت حزناً، وتصدعت أسى لقول هذه الفتاة وهى تبكى، وقد التزمت أباها تعانقه وتقبله وتغسل وجهه الناصع بدمعها الغزير وهى تصيح: لأموتن قبل أن تموت! فما زالت قريش بالشيخ تلاينه وتخاشنه حيناً، حتى اضطرت أن يقبل تحكيم الآلهة.

قالت سمراء وقد بلغ بها الهلع أقصاه: ثم ماذا؟ قالت الفتاة: ثم لا أدري! تركهم يتأهبون لإجالة القداح بين الفتى والإبل، وأقبلت أقص عليك النبأ فرأيتك فيما كنت فيه من حزن عميق.

قالت سمراء: يا بؤساً لهذه الحياة! لا يسعد الناس فيها بخير - مهما يكثر - كل السعادة، ولا يشقى فيها الناس بشر - مهما يعظم - كل الشقاء. أسعيدة أنا بموت الحارث أم شقية؟ لو قد عاش لذقت الآن ما تذوقه فاطمة من هذا الحزن اللاذع والخوف المهلك. ولكنى كنت أوتر مع ذلك أن يعيش؛ فقد كان يمكن أن تخطئه القداح، وقد كان يمكن إن لم تخطئه فى المرة الأولى أن تخرج على الإبل من دونه، وقد كنت أستمتع به أعواماً. ولكن هلم لا مُقام لنا الآن، لنسرع إلى حيث هم لنشاركهم فيما يجدون. وا حسرتاه! إنى لصادقة الحزن! إنى لصادقة الخوف! إنى لشديدة الإشفاق! إنى لشديدة الرجاء! ولكن فاطمة ستظن بى سوءاً، وستقدر أنى

أقبلت غير بريئة النفس من الشماتة. قالت ذلك ونهضت يدفعها حزنها الخالص ويردها خوفها من سوء الظن. ولكنها أسرع مع ذلك، وأسرع معها إياؤها. ولم تكد تتقدم في الطريق نحو المسجد حتى سمعت أصواتاً ورأت اضطراباً، ثم تبينت في الأصوات فرحاً، ورأت على الوجوه بشراً، وعرفت أن القدح قد خرج بعد لأى على مائة من الإبل. وأن عبد المطلب يؤون في الناس أنه سينحر هذه الإبل بين الصفا والمروة، وأنها حرام عليه وعلى بنى هاشم، مباحة لغيرهم من الناس والحيوان والطير.

فأسرعت سمراء حتى اختلطت بفاطمة وبناتها، وهن سائرات يحطن بالفتى، ويحطن بينه وبين غيره من الناس، حتى إذا بلغن البيت ألفين فيه امرأتين تكيان، إحداهما هالة بنت وهيب أم حمزة زوج عبد المطلب، والأخرى بنت عمها اليتيمة آمنة بنت وهب.

هنالك أقبلت سمراء هادئة باسمه إلى الفتاة، فكففت من دموعها، ضمتها إليها وقبلت جبينها الطلق. ثم التفتت إلى عبد الله وهي تقول: "هلم يا فتى فقبل أهلك، فمهما تغل لها في المهر فلن تبلغ هذه الدموع التي دَرَفَتْها حزناً عليك." ثم نظرت إلى فاطمة وهي تقول: "ألا ترين أنها أحق فتيات قريش أن تكون له زوجة!"